" الموسيقى الداخليَّة " في الشعر المنثور.. لا أسمعُها !!

- لقاء أجرته : رنده زريق صبَّاغ

"بعد ١٥ كتابًا، ونشاطٍ شعريٍّ متواصل خلال خمسين عامًا، يعتبر شفيق حبيب واحدًا من أبرز الشعراء عندنا،..."

"عن تجربته الشعرية والوطنية في هذا الحديث: (إنّ من يقرأ مجموعتي الأخيرة "أنا الجاني" ؛ لا بُدَّ له أن يستشفَّ الكثيرَ من تهشيم القوالب، فالمجموعةَ الشعريّةَ اللاحقة هي استمرارٌ للمجموعات السابقة مع تغيُّر الحدثِ واللحظةِ والزمانِ والمكان، ليس هناك ثابتٌ بل كلُّ ما فينا وحولنا متحوِّل...)

هذا ما قاله الشاعر شفيق حبيب في مستهلّ هذا الحديث.

• بدايةُ مشواركَ مع الشِّعر ؟

- لقد بدأتُ مشواري مع الشعر في مرحلة الدراسة الابتدائية، إذ كان يستهويني درسُ المحفوظات بصورة خاصّة، فأحاول تقليدَ تلك القصائد دون أن أدري بأن الشعرَ فنٌّ له قوانينه الصارمة وعالمُه السحريّ.

واستمرّت محاولاتي أثناءَ الدراسة الثانوية بالناصرة، في النصف الثاني من خمسينيات ومطلع الستينيات من القرن الماضي، فتحسّن أدائي كتابةً ومضمونًا، وأصبحتُ أقدِّم درسَ الإنشاء شعرًا مما حدا بأستاذ العربية آنذاك المرحوم حبيب حزان أن كتب لي ملاحظة في ذيل إحدى القصائد: "سيكونُ لك مستقبلٌ في دنيا الشعر يا شفيق!!" وما زلت أحتفظ بهذه القصائد والملاحظات منذ أكثر من خمسين عامًا.

• أولى القصائد - أوّل الدواوين- أذكر عددها وأهمّها.!!

- قصائدي التي كتبتها كمحاولاتٍ كثيرةٌ جدًا، ولكن أول قصيدة نُشرت لي كاملة بدون أي حذف أو تصحيح كانت قصيدة "قصة حب" نشرَتها صحيفة "اليوم" في ٣ آذار ١٩٦١ في ملحقها الأدبي.. أما ديواني الأول فجاء تحت عنوان "قناديل.. وغربان" صدر عن دار "الشرق" وطبع على مطابع "دار الأيتام الإسلامية بالقدس" عام ١٩٧٢.

أصدرتُ حتى اليوم أربعةَ عشرَ ديوانًا شعريًا وكتابًا نثريًّا واحدًا تحت عنوان: "في قفص الاتهام" وهو وقائعُ قضائيةٌ في معركة حرية التعبير، تناولتُ فيه القوانين التي اعتقلتني السلطة الإسرائيلية بموجبها، ومحاكمتي على مدى أكثر من ثلاث سنوات بتهمة التحريض ضد الجيش الإسرائيلي ومؤازرة

وتأييد الانتفاضة والحثِّ على مؤازرتها، فصودرت مؤلفاتي من بيتي ومن المطبعة والمكتبات وأحرقت بأمر من المحكمة.
لقد تناولتُ بهذا الكتاب: أمر مكافحة الإرهاب رقم ٢٢ لعام ١٩٤٨ وقانون العقوبات لعام ١٩٧٧.

• بأي شاعر أو أديب تأثرتَ جدًا؟

- في مطلع حيلتي تأثرتُ جدًا بالأدباء المهجريين وعلى رأسهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة بشكل خاص "والرابطة القلمية " بشكل عام، فعشقتُ كتاباتهم النثرية والشعرية، لأنني لمستُ بها طعمًا مغايرًا لطعم أدبنا الشرقيّ وذلك بالرغم من صغر سني الأدبية آنذاك.

بعد ذلك بلورتُ لنفسي شخصية أدبية لها ميزاتها الخاصة وأصبحتْ قصائدي تعرف حتى بغياب اسمي عنها وذلك بشهادة قراء الشعر وناقديه لدينا.

• حادثة هامَّة أيام الطفولة كان لها أثرٌ على مجرى حياتك كإنسان وكشاعر..

- هناك حادثة ما زالت ماثلة أمام عينيّ وقعت عام ١٩٤٨ وكنت يومها في السابعة من عمري، فعندما احتلت القوات الإسرائيلية قريتي الجليلية دير حنا، أخذوا الرجال وجمعوهم في

ساحة القرية الواسعة، وعندما تأخر الرجال عن العودة إلى بيوتهم أعطتني والدتي صُرّة وفيها طعام قائلة لي: اذهب وأعطها لوالدك ومن معه، ولكن حاذر أن يراك العسكر، عليك التسلل بجانب جدران البيوت وأنا سأرعاك عن بعد، وهكذا كان، وعندما نجحتْ العملية، أرسلتْ بقيةُ النسوة معي الطعام أكثر من مره، ولكن مش كل مرّه بتسلم الجرّه... فقد قبضَ عليّ أحد الجنود وكان برفقة جندية أخرى، فركلني وأخذ مني "الزواويد" المرسلة إلى رفاق أبي، وعدتُ باكيًا إلى البيت حيث وجدتُ جدّي لأبي، وقد عاد مذعورًا مهينًا مهيض الجناح - وهو المختار السابق- بسبب الضرب الذي تعرض له أمام مسجد القرية أثناء تسليمه الجيش الإسرائيلي الذي احتل القرية ثلاثَ قطع سلاح كان يملكها، واحدة لوالدي والأخريان يهبهما لأي اثنين يتجندان للدفاع.. وعندما فحص الجندي الإسرائيلي قطع السلاح الثلاث وجد إحداها ما زالت مشحونة بالذخيرة فانهالوا على جدّي رحمه الله بالضرب والتعذيب والإهانات، وكان يومها قد تجاوز الستين من عمره.

- كيف تقيِّم الشعر الفلسطيني وكيف ترى النقاد العرب والأجانب لهذا الشعر وهل أخذ حقه عالميًّا برأيك ؟

- الشعر الفلسطينيّ، إذا جاز لنا تسميته هكذا، خارجٌ عن السرب العربيّ، فرضَ نفسَه كشعر قضية مرَّ عليها أكثرُ من

نصف قرن وما زالت تراوح مكانها برأيي، بالرغم من هذا الغبار الذي يثيره المُطبِّعون، لقد أدى الشعر الفلسطينيّ وما زال دورَه بمواكبة الحدث بآلامه وآماله.. فأجاد وجلى...

يقف العرب من هذا الشعر مواقفَ عِدّة، فبعضهم يعتبر أن شعر الرفض المناهض سينتهي بإقامة الدولة الفلسطينية ويكون قد أدى دوره، متناسين أن القضية الفلسطينية ليست غزة والضفة الغربية فحسب؛ بل تصل جذورها إلى شواطئ عكا وحيفا ويافا وطبريا وصفد وعسقلان وجميع القرى المهَجرة، ممتدةً في عمق تاريخ الوطن، أما البعض الآخر فيربط مسيرة الشعر الفلسطيني بمسيرة الشعر العربي عامّة، بالرغم من خصوصياته وهذه نظرة شمولية أخرى.

فيما يتعلق بالعالمية، إذا استثنينا محمود درويش وبعضًا أقلَّ من أصابع اليد الواحدة فإن الأدباء العالميين لا يعرفون عنا سوى أدب البندقية.

هناك ظاهرة لا أعرف مدى إيجابياتها على المستوى المحلي وهي قيام بعض الشعراء بانتداب مترجمين إلى الإنكليزية لكي يتعرف الأدباء الغربيون على نتاجهم، وهناك من يحاول أن يُظهر نفسَه ويُسَوِّق شاعريته على الإنترنت، فعلى بركة الله في زمن العولمة والمغنمة !!

• الشعر العربي بشكل عام في حالة انحطاط هل تؤيد هذا القول ولماذا؟

- أنا لا أؤيد رأيًا كهذا. وكأحد المطلعين على نتاجنا العربيّ العامّ من الشعر، هناك شعراءُ يشار إليهم بالبنان..لهم إشراقاتهم الشعريّة.. ولكن هؤلاء أيضًا مثلي لا يجيدون مهنة التسويق والإعلام.

• الشعر العمودي وشعر النثر.. أيهما تفضّل؟ وهل ساهم شعر النثر بالتقليل من قيمة الشعر العربيّ عامّةً؟

- هناك الشعر العمودي السائر حسب مواصفات الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهناك شعر التفعيلة أو ما يسمى بشعر نازك الملائكة وهناك شعر مجلة "شعر" والنثر الشعري أو الشعر النثري والكلام الذي لا يسمن ولا يُغني عن جوع.. فالسّاحة تتسع لمن هبَّ ودبَّ، ولكن الزمن كفيل بغربلة هذا الشعر، إذن ليست هناك صلة بين التقليل من قيمة الشعر العربيّ عامّة وفيضانات شعر النثر.. فمهما كثرت المعادن الرديئة فالماس هو الماس والذهب هو الذهب.. وأما الزبد فيذهب جفاءً.

أنا شخصيًا أحبّ الموسيقى الشعرية.. لذلك أفضل الشعر العمودي وشعر التفعيلة.. أما الموسيقى الداخلية لأنواع الشعر الأخرى فليس عندي آذان وأنتينات تلتقطها.

• نلاحظ أن الشعر الوطني في حالة ركود... لماذا؟؟

- هذا طرحٌ صحيح، فبعد أوسلو ظن بعض الشعراء أن القضية الفلسطينية حُلت وفتحت أبواب السماء، فصمتوا صمتَ أهل الكهف واختلط الحابل بالنابل... فبعد أوسلو عرفت السلطة الإسرائيلية من أين تؤكل الكتف،.. فافتتحت مراكز لها ومكاتب ومؤسسات تعنى بالعرب واشترت بعض أصحاب الأقلام من الشعراء والأدباء ورجال الصحافة الصفراء فصمتوا صمت أهل الكهف عن سياسات القتل والكبت وهدم البيوت ومصادرة الأراضي وعدم المساواة في دولة الديمقراطية الزائفة... فصمتَ الصّوتُ الشعريُّ المناهض بسبب امتلاء الجيوب وتورُّم الحناجر المسبِّحة بنعمة السلطان....

• ألقيَ القبضُ عليك وسُجنتَ أكثرَ من مرَّة.. ما الأسباب وما النتائج الذاتية لمثل هذا النهج الحكومي؟

- تضمّن ديواني "مأساةُ القرنِ الضليل" الصادر عام ١٩٧٦ قصيدة تحت عنوان: "الحرفُ والمأساة" أهديتها إلى الشاعر شهيد الكلمة والموقف: "الحسين بن منصور الحلاج في كلّ زمانٍ ومكان" قلتُ فيها ملخصًا نمطي الشعري ودوري الحياتي وعقيدتي الراسخة:

لن أكتبَ بعدَ اليومِ قصيدَه...

إن لم أغمسْ بدمي قلمي..

فمخاضُ الكلمةِ بالألمِ

يهَبُ المولودَ خلودَه...

فالحرفُ عقيدة..

إن لم أحفظها بضلوعي،

إن لم أغسلها بدموعي،

أضحتْ مَوْؤودَه

فالحرفُ عقيدة...

إنْ لم يُخصِبْ أصبحَ نعلاً

ملفوفًا في طياتِ جريدَه

نعم!! لقد ألقت السلطة الإسرائيلية القبضَ عليّ عدّة مرات بسبب نشاطي السّياسي التنويري للجماهير العربية ضد ممارسات هذه السلطة؛ وطردتُ من عملي كمعلم وكموظف بنك ومُنعتُ من السفر للعمل ولكني لم أنكسر... وواصلت.

• كتبتَ شعرَ الغزل والشعرَ الوطنيّ والسياسي.. فأين ترى نفسك؟؟

- الشاعر كأي إنسان آخر، له عواطفهُ وأحاسيسُهُ ويتفاعلُ مع بيئتهِ وشعبهِ وأمّتهِ، لذلك؛ فهو لا يستطيع الانسلاخَ عن هذا العالم الكبير وإن كان له عالمهُ الخاصّ به.

إنني ما زلتُ أكتب شعرَ الغزل والشعرَ الوطنيّ والسياسيّ، ولكني مُقِلّ غزلاً ومُكثِرٌ وطنيًا وسياسيًّا، لأنّ قضيتنا الفلسطينية ما زالت بين فكيْ أمواج المدَّ والجَزْر، وتمزُّقنا العربيّ ما زال يُثيرُ بي التقزُّزَ ونحن على أدنى درجات سُلمِ الحضارة.

• أنت ابن لإحدى قرى يوم الأرض، كيف أثرت هذه الحقيقة على نوعيّةِ أشعارك؟

- لقد كنتُ في طليعةِ المدافعين عن الأرض، وشاركتُ في عشرات المهرجانات الخطابيّة والتظاهرات طولَ البلاد وعرضها ولم أترك منبرًا للدفاع عن قضيتي إلا واعتليتهُ مع توفيق زيّاد وإميل حبيبي وتوفيق طوبي وحنا أبو حنا وحنا إبراهيم وسالم جبران وفاروق مواسي وجمال قعوار وعطاالله جبر وإدمون شحاده وحسين مهنا ومصطفى مراد ومفلح طبعوني ونشطاء شعبيين وسياسيين وشعراءَ آخرين من الصف الوطني، مما حدا بالشرطة الإسرائيليّة بأن تستدعيني عقبَ كلّ

اجتماع جماهيري أو مظاهرة احتجاجية، إلى مركزَي الشرطة في مسغاف- سخنين وعكا للتحقيق والتوقيف عدّة ساعات مع أخذ بصمات أصابعي العشرة كمجرم ضالع في جريمته، لكن، لم يحدُث أن اعتقِلت أو حوكمت حتى كانت قضيتي زمن الانتفاضة الأولى بتهمة مساندة منظمة إرهابية، فسُجنتُ وغرِّمتُ وحوكمت منذ عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٣ ابتداءً من محكمة الصُّلح بعكا ومرورًا بالمحكمة المركزيَّةِ بحيفا حتى محكمة العدل العليا بالقدس.

لقد كنتُ أكثر الشعراء الفلسطينيين الذين تناولوا المعارك الشعبية ضد المصادرات ودواويني الشعرية، هي تاريخ لنضالات شعبي، تضمُّ دفاتها عشرات القصائد عن يوم الأرض الخالد وشهدائه الأبرار والتصدّي والتحدّي الشعبيَّيْن للمصادرات وهدم البيوت، فقد نذرتُ قلمي مدى عمري لقضيتي الفلسطينية الشاملة، حتى جاءت الانتفاضة فأخذتُ أعتلي المنابر وأشارك أبناء شعبي بشحنهم بالكلمة الرافضة النابضة الغاضبة، بعدها، قمتُ بجمع هذه القصائد والمواد الأخرى وأصدرتها ضمن ديوان يحمل عنوان "العَوْدةُ إلى الآتي" عام ١٩٩٠.
لقد عثرتْ الشرطة على نسخ من هذا الديوان الذي لم يُقدَّم للمراقبة مُسْبَقًا عند أحد الحواجز في الضفة الغربيّة على أبواب رام الله، فأصدرتْ محكمة عكا فورًا أمرها للشرطة بمصادرة

الديوان؛ فداهمت بيتي ومطبعة الحكيم بالناصرة والمكتبات، حيث صادرت كميّات كبيرة من دواويني السابقة واللاحقة، وأُحرقت وأُبيدت بعد ذلك بأمر صادر عن المحكمة.

سُجنتُ عام ١٩٩٠ في سجن الجلمة (كيشون) السيئ الصّيت مع تجار المُخدّرات وفرضت عليّ الإقامة الجبرية في بيتي وصودرَ جواز سفري، حيث مُنعتُ من مُغادرة البلاد.

إنَّ قصة سَجني ووقائع المحاكمات وثقتها في كتاب يحملُ عنوان: "في قفص الاتهام" صدر عام ١٩٩٣ وأهديته للمحامي اللامع والأديب المعروف أفيغدور فلدمان الذي وقف إلى جانبي واستمات في الدفاع عن شعري ومواقفي وقضيتي طوال أكثر من ثلاثة أعوام.

عندما انتهت محاكماتي لم تفتَّ الممارساتُ السلطوية في عضدي بل ازددتُ صلابة وعنادًا.. وواصلتُ نهجي الوطني الصادق حيث أصدرتُ بعد عملية القمع هذه ستة دواوين شعريّة هي: "ليكونَ لكم فيَّ سلام"، "آهِ يا أسوارَ عكا!!"، "تعاويذُ من خزف"، "لماذا"، "صارخٌ في البرِّية"، وَ"أنا الجاني".

• ما هي أهمّ مميزات شعر شفيق حبيب وما هي إضافاتك للشعر الفلسطينيّ؟؟

لسان المرء قصير بحق نفسه... إنَّ أهم مميزات شعري وإضافاتي للشعر الفلسطيني وردت في نقد بعض أعمالي

للدكتور يحيى زكريا الآغا والدكتور نادي ساري الديك والدكتور فاروق مواسي والدكتور بطرس دله والدكتور منير توما والنقاد الأساتذة: طلعت سقيرق، نور عامر، ودواليه بشارة، ونبيل عودة، ومحمد علوش، وشاكر فريد حسن، وغيرهم ممن أستميحهم العذر لعدم ذكر أسمائهم...

وفي النهاية، نقتبسُ مما ذكره الدكتور يحيى زكريا الآغا بأن شاعرَنا:

(صاحبُ قلمٍ خاص، ومنهجيّةٍ متميزةٍ مع تنوُّعٍ في الموضوعات وفي الأفكار، يرصدُ من خلالِ شعرهِ كلَّ الصُّوَرِ التي حدثت وتحدثُ للشعب الفلسطينيّ مبتعِدًا عن الغلوِّ.. وما زال يبدعُ من معين الأرضِ والوطن من أجل تحقيق الحرية المنشودة والعدل المفقود في زمن الاعتقال الفكري والأمل الضائع...ويبقى الشاعر شفيق حبيب علامةً مُضيئةً في دنيا الشعر وأحدَ رموز التحدّي والمُواجهة..)

جريدة " العين " النصراوية

٢٤-٤-٢٠٠١